

التناوب ظاهرة انزياحية في الشعر الجاهلي قراءة في "القصائد السبع الطوال"

صلاح الدين عبيدي^{1*} و جواد محمد زاده²

الملخص:

عادة ما، تخرج اللغة في النص الأدبي عن الأصل الذي يتفق عليه جمهور النحاة، بنحو لا يعدّ هذا الخروج تقويضاً لقوانين اللغة وقواعدها، إنما يأتي لأغراض بلاغية يقصدها المتكلم، وهذا ما يسمى بالانزياح. للانزياح أنماط مختلفة في اللغة لكن اخترنا في بحثنا هذا، ظاهرة التناوب بوصفه ظاهرة عدولية وهو إحلال كلمة - قد تكون اسماً أو فعلاً أو حرفاً - محل غيرها مما يناظرها. أما هدف هذا البحث فهو متمثل في عنوانه ليس إلا تحديد مدى استعمال شعراء المعلّقات لهذا الأسلوب، والغرض الجمالي الذي يكمن وراءه. لرصد ظاهرة التناوب في هذه القصائد، قمنا باستقراء الشواهد الشعرية لهذه الظاهرة والتعليق عليها وتحليلها على المنهج الوصفي التحليلي ووصلنا بعض النتائج منها: إنّ ظاهرة التناوب في الأفعال هي أكثر أنواع التناوب انتشاراً عند شعراء المعلّقات ويكمن الغرض الرئيسي منه في توليد الصيغ والكلمات الجديدة بأخصر طريق ممكن وفي هذا الصدد أثبت البحث أنّ الكلمة يتحول معناها بسبب اقترانها بكلمة أخرى، أو لدخولها في تركيب معين، فاقتزان الكلمة بكلمة أخرى كوّن لنا المعنى الجديد.

الكلمات المفتاحية:

المعلّقات، الانزياح، التناوب، التضمين النحوي، التحليل اللغوي.

s.abdi57@gmail.com

(1) أستاذ مشارك في فرع اللغة العربية وآدابها بجامعة بو علي سینا، همدان

s.abdi@basu.ac.ir

(2) طالب دكتوراه، في فرع اللغة العربية وآدابها بجامعة بو علي سینا، همدان

javadmohammadzadeh59@yahoo.com

The phenomenon of alternation in Arabic grammar from a stylistic perspective a study in seven long arabic poems

Abstract

Usually in literary texts, the language deviating from criteria and legal all linguists agree on it, So that the running from the criteria, takes shape in line with some rhetorical purposes that the author intends its, which in its term, said Defamiliarization. The defamiliarisation of language Takes place in many different species, wich in this paper, we have chosen the alternation phenomenon as a phenomenon of deviation. The alternation ,this means that word or phrase to be replaced instead of another word while like it and led to the its meaning and will be replaced it in context. The aim of this study determined to the poets have used this technique and expression of aesthetic value that lies beyond it. In order to examine the frequency of the odes poets, we have chosen some evidence poem which implies the existence of this phenomenon and we have analyzed based on the descriptive and comparative method. The results indicate that alternation in the verbs in comparison with other alternatives with more frequency in the Mu'allaqat, and the main purpose of the application of such an element, creating new meanings in the most concise possible. In this regard, this paper has shown that the meaning of a word characterized on the outcome of companionship with other word and as well as its placement into a compound.

Key words: Mu'allaqat, Defamiliarization, alternation, linguistic analysis.

1. المقدمة:

تتبع اللغة العربية أنماطاً وأساليب متعددة في التعبير عن الشيء المطلوب ومن هذه الأساليب أسلوب التناوب. يمثل التناوب أحد أهم مقومات النظام النحوي في اللغة العربية وبما له من تأثير كبير في إعطاء المعنى الجديد وفي تحقيق الإيجاز في التركيب وذلك من خلال عدد من السّمات اللغوية والنحوية ورغم ما يبدو عليه من الاتصال بمفردات الأشياء إلا أنّ قيمته الحقيقية تبرز بشكل أساسي في البنى النحوية للجملة. بما أنّ التناوب يعد ظاهرة عدولية كثر وروده في النص

الأدبي لذلك قد اخترنا المعلقات كنصّ أدبي لهذه الدراسة التطبيقية؛ لأنّها مصدر من مصادر الاحتجاج اللغوي وهي تحتوي القصائد التي بلغت إلى ذروة الفصاحة في ألفاظها وتراكيبها. وقد اقتضت طبيعة الدراسة أن يتفرّع الموضوع إلى فرعين أساسيين: الجانب النظري والجانب التطبيقي. في الجانب النظري، تطرقنا إلى قضية التناوب بوصفه مصدراً من مصادر الخروج عن الأصل والقياس في التركيب اللغوي بالحمل على المعنى والتضمن والنيابة أمّا في الجانب التطبيقي فتناولنا ثلاثة أنواع من التناوب والأول: التناوب في الأفعال والثاني: التناوب في الأسماء والآخر: التناوب بين الحروف. المنهج الذي أخذنا به في هذه الدراسة فهو المنهج الوصفي التحليلي الذي بفضلُه تتبعنا القصائد بالدراسة بناءً على الاستقراء والتحليل. تكمن أسئلة هذا البحث فيما يلي:

- أيّ نمط من أنماط التناوب أكثر انتشاراً عند شعراء المعلقات؟ - ما هو دور السياق في التمييز بين الكلمة النائية والمنوب عنها؟ - ما هو الغرض الرئيسي من التناوب عند شعراء المعلقات؟

2. خلفية البحث:

هناك دراسات تناولت جوانب من هذا الموضوع:

- «حروف الجر بين النيابة والتضمن»، كتب هذا المقال أحمد مطر المطية، وطبع سنة 2008م في العدد 112 في مجلة التراث العربي بدمشق. قد أشار الكاتب في هذا المقال إلى تعاريف التضمن والنيابة من قبيل النحويين والبلاغيين وجاء بأمثلة من القرآن الكريم. - «ظاهرة التضمن في القرآن»، كتب هذا المقال الكاتبان: خليل برويني وجميل جعفري، وطبع سنة 2004م في العدد 11 في مجلة العلوم الانسانية. قام الكاتبان في هذه المقالة بتحليل مفهوم التضمن فيدرسان حد

التضمنين الكوفي والبصري وصورهما المختلفة ويتكلمان عن دور التضمنين الإيجابي. - «تناوب حروف الجر في ديوان إمرئ القيس دراسة وصفية تحليلية»، كتب هذا المقال أحمد عبد الرحمن الذنيبات، ونضال محمود الفراية. في مجلة كلية الآداب واللغات، سنة 2011 في العدد 9. في هذه الدراسة لم يقتصر الباحثان على الشعر وحده ، بل قرناه بنماذج من الآيات في القرآن الكريم. - «النحو وقضاياها في شرح النحاس على المعلقات دراسة وصفية» للكاتبين: سميرة حسنعليلان ومحمد رضا ابن الرسول. طبع هذا المقال في مجلة الجمعية العلمية الإيرانية للغة العربية وآدابها، فصلية محكمة، العدد ٢٧، الصيف ١٣٩٢ هـ.ش. أظهرت الدراسة أن اهتمام النحاس بالنحو جلي في شرحه في مظاهر عدة، منها : عود الضمير، ومعنى الحروف، وبيان آراء الكوفيين والبصريين في قضايا نحوية، وتوضيح معاني الحروف والظروف في البيت.

3. تحديد المصطلح:

التناوب في اللغة فيه معنى التبادل وتقسيم الأمر الواحد وتوزيعه، وفيه - أيضاً- معنى الإحلال، أي إحلال شيء محل شيء آخر وجاء أيضاً في لسان العرب: «تناوب القوم الماء، أي تقاسموه على المقلة وناب الشيء عن الشيء ينوب: قام مقامه»⁽¹⁾ وفي الاصطلاح هو إحلال كلمة - قد تكون اسماً أو فعلاً أو حرفاً- محل غيرها مما يناظرها، فتؤدى معناها. قيمة التناوب أنه لا يثبت المعنى الكامن في الكلمة الواردة في السياق فحسب، بل تتم في ذات الوقت عملية استحضار للكلمة المنوب عنها، وما ينجّر عنها من معان، فتحدث عملية مزاجية بين الكلمتين المنوب عنها والنائبة ومن ثمّ تزواج المعنيين، مما يؤدي في النهاية إلى إثراء المعنى⁽²⁾. أما الأسئلة التي يجب الانتباه إليها في عملية التناوب فهي: ما هو القانون أو المعيار

الذي به يتحقق التناوب؟ ما الأصل أو القاعدة التي تتم النيابة عنها؟ هل هي القاعدة المعيارية المتواضع عليها، أو أنها القاعدة السياقية التي يفرضها السياق اللغوي؟ يعرف المعيار على أنه النظام اللغوي الذي ينبغي على المتكلم إتباعه ليحقق أداءاً لغوياً فصيحاً، واعتماداً على هذا المعيار تحدّد درجة الفصاحة عند كل فرد، ويطلق على هذا المعيار الذي يخرج عنه العدول بمسميات كثيرة منها: «الاستعمال الدارج والمألوف والشائع والوضع الجاري ودرجة الصفر* والسنن اللغوية.»⁽³⁾ لعل موازنة بين عبارتين من مثل: الدم الأحمر والدم الأبيض تظهر الفرق الكبير بين المعيار والانحراف عنه، "فالدم الأحمر" عبارة يظهر فيها الأصل ودرجة الصفر لأنها تمتلك معنى معجمياً فقط ولكن عبارة "الدم الأبيض" تعد خروجاً عن الأصل اللغوي المعتاد وهنا نابت كلمة "أبيض" مناب كلمة الأحمر وهذا هو التناوب. أمّا العدول عن الأصل فهو مظهر من مظاهر الأسلوبية، حيث يشمل جميع مستويات اللغة، لاسيما المستوى النحوي. الغرض من النحو هو النحو التوليدي التحويلي الذي ملخص نظرياته يبني على أن هناك تركيبات أساسية تشترك فيها اللغات جميعاً وأنّ وظيفة القواعد التحويلية في هذه النظرية تحويل تلك التراكيب الأساسية إلى تراكيب سطحية وهي التراكيب المنطوقة فعلاً، ويسمّعها السامع وعملية وصف العلاقة بين التركيب الباطني والتركيب الظاهري تسمى تحويلاً والعلاقة بين التركيبين تشبه عملية كيميائية يتم التعبير عنها بمعادلة أحد طرفيها المواد قبل تفاعلها "input" والطرف الآخر هو الناتج بعد التفاعل "output" وبمعنى آخر فإنها القواعد التي تضيف على كل جملة تولدها تركيبين: أحدهما باطني أساسي والآخر ظاهري سطحي وتربط التركيبين بنظام خاص⁽⁵⁾. إن الكفاية اللغوية والأداء الكلامي من الركائز الأصلية في معرفة التناوب والمقصود بالبنية العميقة هو المعنى الكامن في نفس المتكلم بلغته الأم ومقياسه المقدرة أو الكفاية اللغوية أما البنية

السطحية فهي ما ينطقه الإنسان فعلا ويمثلها الأداء الفعلي للكلام⁽⁶⁾. أمّا السؤال الرئيسي في مسألة التناوب فهو كيف نفهم أن هناك تناوباً في الكلمة أو الجملة؟ نفهم عملية التناوب إما عن طريق القواعد اللغوية الحاسمة في علم النحو وإما عن طريق السياق. قد لاحظ فان ديك (van dijk) أن الجملة تركيب شديد التعقيد يستمد وجوده مما يوجد أمامه وبعده، ووصفُ الجملة وحده غير كافٍ، ولا بد من أن يتصدى النحو لدراسة بنية أكبر هي النص. فقولنا "تلك الطاولة صاخبة" لو وردت وحدها دون أن توضع في سياق لما كان لها أي معنى مع أنها من الناحية النحوية مقبولة. على أننا لو كنا نجلس في مقصف، وكان الجالسون حول الطاولة يضحكون في صخب، ثم قلنا هذه الجملة مشيرين إليها فإن المعنى يغدو مفهوماً جداً مع أن التركيب النحوي للجملة لم يتغير في قليل أو كثير. فبناء عليه فإن المقام يجعل من التركيب المرفوض تركيباً مقبولاً ذا معنى⁽⁷⁾. فالكلمة -حسب ما يرون- هي الموجودة في السياق، بمعنى أنه لا يتحدد معناها تحديداً دقيقاً إلا من خلاله، وهي لا تدل مستقلةً بنفسها على شيء. قال اللساني الفرنسي ميلي: «إنّ الكلمة الحقيقية هي الكلمة في السياق»⁽⁸⁾ كان مفهوم السياق متضحاً عند نقاد العرب القدامى ومنهم عبد القاهر الجرجاني حيث قال في موضع: «فلو كانت الكلمة إذا حسنت من حيث هي لفظ، وإذا استحققت المزية والشرف استحققت ذلك في ذاتها وعلى انفرادها، دون أن يكون السبب في ذلك حالاً لها مع أخواتها المجاورة لها في النظم، لما اختلفت بها الحال، ولكانت إما أن تحسن أبداً أو لا تحسن أبداً، ولم تَر قولاً يضطرب على فائله حتى لا يدري كيف يعبر، وكيف يُورد ويصدر»⁽⁹⁾ بما أننا عاجلنا هذا المقال من المنظور الأسلوبي فينبغي لنا التطرق إلى هذا المنهج في سطور فهي تبحث عن الخصائص الفنية الجمالية التي تميز النص عن آخر، أو الكاتب عن آخر، من خلال اللغة التي يحملها خلجات نفسه وخواطر وجدانه، قياساً على هذه

الأمر مجتمعاً، تظهر الميزات الفنية للإبداع، فمنها يمكن تمييز إبداع عن إبداع انطلاقاً من اللغة الحاملة لسماته بكل بساطة، ومن ثم فإن الأسلوبية تحاول الإجابة عن السؤال: كيف يكتب الكاتب نصاً من خلال اللغة؟ إذ بها ومنها يتأتى للقارئ استحسان النص أو استهجانته. أشار شارل بالي وهو المؤسس الأول لعلم الأسلوب إلى أنّ الأسلوبية تنبسط على «رقعة اللغة كلها، فجميع الظواهر اللغوية ابتداء من الأصوات حتى أبنية الجمل الأكثر تركيباً يمكن أن تكشف عن خصصية أساسية في اللغة المدروسة والوقائع اللغوية مهما تكون يمكن أن تشف عن لحظة من حياة الفكر بأكملها، منظوراً إليها من زاوية خاصة.»⁽¹⁰⁾ ولهذا فإن أهم المعايير التي تعتمد عليها الدراسة الأسلوبية في سائر المستويات اللغوية يمكن أن تجمل في الآتي:

- المنظور الإحصائي: ويطبق من خلال الاهتمام بمعدل التكرار لبعض العناصر اللغوية، فالعنصر الذي يتكرر أكثر من غيره أولى بالدراسة؛ لأن تكراره يعني أنه سمة أسلوبية في النص، وأن المبدع يعوّل عليه أكثر من غيره «وتنطلق من فرضية إمكان الوصول إلى الملامح الأسلوبية للنص عن طريق الكمّ، تقترح إبعاد الحدس لصالح القيم العددية، وتجتهد لتحقيق هذا الهدف بتعداد العناصر المعجمية في النص.»⁽¹¹⁾

- مبدأ العدول: وهو يعني الخروج عن المؤلف في استعمال اللغة إلى استخدام جديد، «فإنّ الأسلوب هو ابتعاد ecart عن الكلام المؤلف والمستعمل، فقولنا سال ماء الوادي قول مألوف، أمّا قولنا "سال الوادي" فابتعاد عن المؤلف وخروج عن المستعمل، وبالتالي نحن تجاه ظاهرة أسلوبية تعرف بالابتعاد.»⁽¹²⁾

- مبدأ الاختيار: يرى بعض الباحثين أنّ اللغة المعينة هي عبارة عن قائمة هائلة من الإمكانيات المتاحة للتعبير، ومن ثم فإنّ الأسلوب يمكن تعريفه بأنّه اختيار

choice أو انتقاء selection يقوم به المنشئ لسمات لغوية معيّنة بغرض التعبير عن موقف معين. ويدلّ هذا الاختيار أو الانتقاء على إثثار المنشئ، وتفضيله لهذه السمات على سمات أخرى بديلة. ومجموعة الاختيارات الخاصة بمنشئ معين هي التي تشكل أسلوبه الذي يمتاز به من غيره من المنشئين⁽¹³⁾.

بما أن التناوب يعد انحرافاً عن الأصل فينبغي على المؤلف معرفة وافية باللغة الأصلية وفي عملية التناوب هناك احتراس يجدر بالمبدع أن يأخذه بعين الاعتبار، وهذا الاحتراس متمثل في أن ليس كل انحراف يظهر قيمة فنية تكشف عن قدرة على الإبداع والخلق، إذ لا بد أن يصاحبه وظيفة جمالية وتعبيرية. من ميزات اللغة العربية، أنّ الفعل وما يشتق منه يتعدّى بحرف مخصوص لا يتحوّل عنه إلى سواه، لكنه نرى كثيراً ما نستخدم أفعالاً يتعدّى بحرف آخر وهذا نوع من التناوب في الأفعال، حيث يؤدي إلى تغيير معنى الفعل. على سبيل المثال حينما نقول: "تأمل إلى الدنيا" ففي هذه الجملة تعدّى الفعل "تأمل" بـ"إلى" وهو في الأصل يتعدّى بنفسه أو بـ"في" فصار نائباً عن فعل آخر يتعدّى بـ"إلى" وينظر في المعنى مثل "أنظر"⁽¹⁴⁾. وبين الفعلين - النائب والمنوب عنه - ارتباط معنوي، إذ يقال: «تأملت الشيء، أي نظرت إليه مستتباً له وتأمل الرجل: تنبّت في الأمر والنظر.»⁽¹⁵⁾ أمّا التناوب في الإسم فنحن بهذه الظاهرة ورود اسم في السياق الشعري بديلاً عن نظير له كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾⁽¹⁶⁾ جاء قوله "في الظلمات" كناية عن عمى البصيرة فهو ينظر كقوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمِيٌّ﴾⁽¹⁷⁾ لكن نرى أن قوله "في الظلمات" ينوب هنا عن "عمي" إذ جعلت ظرفاً لهم وجمعت لاختلاف جهات الكفر، وفي الظلمات أهول عبارة وأفصح وأوقع في النفس⁽¹⁸⁾. أمّا الشكل الثالث للتناوب فهو التناوب في الحروف ويعني هذا أنّه لا تشير الحروف - جارة كانت أم عاطفة - إلى معانيها الأصلية فقط

وإنما تشير أيضاً عند سياقات معينة إلى معاني حروف أخرى وتنوب عنها، ومما جاء في ديوان الشعراء قول الشاعر:

تَصُدُّ وَتُبْدِي عَيْنَ أُسَيْلٍ وَتَنْقِي بِنَاظِرَةٍ مِّنْ وَحْشٍ وَجَرَةٍ مُّطْفِئِلٍ⁽¹⁹⁾

فالمعنى تصد وتبدي بأسيل ولا يكون المعنى عن أسيل وتبدي به، ولا تصد بأسيل وتبدي عنه، ويضيف المألفي: «وقد تقدّم في غير موضع أنّ الحروف لا يوضع بعضها موضع بعض إلا إذا كان الحرف في معنى الآخر، أو مردوداً إليه بوجه ما، وأمّا مع عدم الرجوع إليه أو إلى العامل فلا يجوز بوجه فاعلمه..»⁽²⁰⁾ ونرجّح أنّ الشاعر رجع إلى هذا التناوب؛ ليشرح الإعراض والكشف في آن، أو الرغبة والتّمنّع عن المحبوبة⁽²¹⁾. النقطة التي يجب الانتباه إليها في عملية التناوب بين الحروف هي أنّه لا يصحّ أن نقول إنّّه لو كانت "على" تنوب عن "إلى" أو تستعمل بمعنى "إلى" لصحت نيابتها عنها دوماً، فنقول: "وضعت الكتاب إلى الرف" بمعنى: على الرف، فإنّ اللغة العامية، وإن كانت توقع الحروف بعضها موقع بعض، أو تستعمل للمعنى الواحد أكثر من حرف واحد، لا توقع الحرف الآخر باطراد، فإنّه يبقى لـ"على" استعمالها، ولـ"إلى" استعمالها، وللام استعمالها الخاص بها، لذلك يجب أن يكون وراء هذا العدول نكت بلاغية وأغراض جمالية وكثيراً ما نجد هذا العدول عند أصحاب الأقلام في كتبهم وتأليفهم الأدبية الفنية؛ لأنّه «في الكلام الفني قد يختار المتكلم حرفاً على حرف، أو لفظاً على لفظ، لأداء معنى معيّن، أو لدلالة معيّنة، وربّما لم يستعمل الحرفين في معنى واحد كما يستعمله المتحدّثون في أمورهم اليومية، أو قد يكون المعنى الذي يستعمله في حرف، مختلفاً عن مشابجه الذي يستعمله في حرف آخر، فالظرفية التي يستعملها بالباء تختلف عن الظرفية التي يستعملها بـ"في". والتعليل الذي يستعمله باللام يختلف عن التعليل الذي يستعمله بالياء،

وهكذا.»⁽²²⁾ فالكلام الذي يستخدمها المبدع يختلف عن الكلام الذي يتكلم بها العامي وكثيراً ما نرى أنّ المتكلم العادي يستخدم حرفاً موقع حرف آخر في معنى ما فيقول ذهبت له وإليه من دون نظر إلى معنى معيّن، أو إلى فرق معيّن بين التعبيرين «وهذا الاستعمال الفني هو الذي يدفع اللغة إلى أمام فيجعلها أكثر دقّة، وتخصّصاً، وغناءً ونمّاءً لا الاستعمال العامي الساذج غير المخصص ولا الدقيق.»⁽²³⁾ بما أنّ أشعار المعلّقات تعدّ نصّاً بلغت مبلغها من الإبداع والجمال، لذلك نرى أنّ هذه التقنية المزاحية جاءت في لغتها أي: حروف ناب بعضها عن بعضها الآخر بكثرتها العددية بحيث أصبحت عيّنة أسلوبية فيها وتعرض السطور التالية هذه الظاهرة بأنواعها المختلفة مع الاستدلال بالأبيات التي اخترناها من المعلّقات.

4. التناوب في الأفعال:

من الظواهر اللغوية المشهورة التي يلعب فيها المعنى دوراً بارزاً هو ظاهرة التناوب في الأفعال والتي يسمى أيضاً بالتضمين النحوي وهو نوع من التناوب الذي يعد من أساليب العرب في كلامها، ومن معانيه في اللغة: الكفيل. أمّا التضمين النحوي** فهو يعني «أن يؤدي فعل أوما في معناه مؤدى فعل آخر أوما في معناه فيعطى حكمه في التعدية واللزوم»⁽²⁵⁾ أو «قد يشربون لفظاً معنى لفظ فيعطونه حكمه، وذلك يسمّى تضميناً وفائدته: أن تؤدي كلمة مؤدى كلمتين.»⁽²⁶⁾ أخذ التناوب في الأفعال (التضمين النحوي) أنماطاً متعددة في المعلّقات منها:

- أ- تضمين فعل معنى فعل آخر. ب- تضمين فعل متعدّ بنفسه معنى فعل متعدّ بحرف الجر. ج- تضمين فعل معنى الفعل الذي يتعدّى إلى مفعولين.
- د- تضمين الأفعال بطريق الاشتقاق.

4-1. تضمين فعل معنى فعل آخر

إن هذا النوع من التضمين هو أكثر أنواع التضمين انتشاراً في المعلقات حيث كثرة ورودها فيها تجعله عينة أسلوبية ومنه قول زهير بن أبي سلمى:

وَمِمَّا الْحَرْبُ إِلَّا مِمَّا عَلِمْتُمْ وَذُقْتُمْ وَمِمَّا هُوَ عَنْهَا بِالْحَدِيثِ الْمُرْجَمِ⁽²⁷⁾

ذاق الحرب أي: أحسَّ بها، فعل "ذاق" في معناه الأصلي «وجود الطعم في الفم»⁽²⁸⁾ وحاسة الذوق بها قوة تدرك خواص الأجسام الطمعية كقول عمرو بن كلثوم حين يصف الخمرة:

تَجَرُّورُ بِذِي اللَّبَانَةِ عَنِ هَوَاهُ إِذَا مَا ذَاقَهَا حَتَّى يَلِينَا⁽²⁹⁾

لكن في بيت الزهير جاء مصاحباً مع كلمة "الحرب" والتعبير (ذوق الحرب) نوع من تراسل الحواس فهو استعارة لإحساسه؛ لأنَّ الذوق أقوى الحواس المباشرة للجسم. جاء التعبير بالذوق عن تداعيات الحرب السلبية من الدمار والخراب وما شابه ذلك للإشارة إلى أنَّ الذين خاضوا في الحرب يحسُّون هذا العذاب كإحساس الذائق في غاية القوة وهذا التعبير أولى وأزكى لبيان التوبيخ والتقريع الذي أشار إليه الشاعر. إنَّ السياق الموقفى التوبيخي يدلنا على سبب اختيار "الذوق" بدل "إحساس" أمَّا السياق اللغوي الذي متمثل في التركيب فيعرِّف المعنى الضمني في الفعل "ذوقوا"، بمعنى آخر إذا راجعنا إلى تركيب الجملة يتبين لنا معنى "الإحساس"؛ لأن تنسيق الكلم وهو متألف من (فعل + فاعل + مفعول) والمفعول (الحرب المحذوف) هنا ليس من الأمور التي يتذوقها الإنسان بل يحسها ويرتكبها وجعل هذه الكلمة مفعولاً للذوق قرينةً للمعنى الضمني في البيت. ومن أمثلة هذا النوع من التضمين قول طرفة بن عبد:

يَقُولُ وَقَدْ تَرَّ الْوُظِيفُ وَسَاقَهَا أَلَسْتَ تَرَى أَنْ قَدْ أَتَيْتَ بِمَوِيدِ⁽³⁰⁾

إنّ فعل "أتى" في أصل وضعه بمعنى جاء، لكن عندما يقع في السياق يأخذ معاني أخرى؛ إذ تغير معنى "أتى" في هذه البيت وتضمن معنى "ارتكب، حصل" والمراد بإتيان ارتكابه وحصوله، فشبه البلوغ بمجيء الجائي. ومثله قول طرفة أيضاً:

ستبدي لك الأيام ما كنت ويأتيك بالأخبار من لم تزود⁽³¹⁾

كما نلاحظ أنّ فعل "يأتي" جاء مضارعاً مسبوقاً بفعل الذي اقترن بحرف التسويف (ستبدي) لتأكيد حصول ذلك في المستقبل، فاستعمال الإتيان هنا في الإصابة والحصول. إذا أمعنا النظر في البيت، نرى أن فعل "أتى" ليس في معناه الأصلي أيضاً؛ لأن هذا الفعل لازم، لكنّه هنا متعديّ لمفعول واحد، حيث يدلّنا على أنّه في معنى "وصل" أي: لما وصلهم. تجدر الإشارة هنا إلى الفرق بين "أتى" و"جاء" فقال الراغب مفرّقاً بين الإتيان والمجيء: «الإتيان مجيء بسهولة، ومنه قيل للسيل المار على وجهه أتى»⁽³²⁾ وقال أيضاً: «المجيء كالإتيان، لكن المجيء أعم، لأنّ الإتيان مجيء بسهولة»⁽³³⁾ وكقول النابغة حيث يقول:

أتاني، أبيت اللعن! أنّك لم تني وتلك التي أهتمّ منها، وأنصب⁽³⁴⁾

والمراد بإتيانه بلوغه إليه وتحديه به، فشبه البلوغ بمجيء الجائي! بمعنى آخر، استعير الإتيان بحصول العلم تشبيهاً للمعقول بالمحسوس، كأنّ الحصول مجيء إنسان على وجه التصريحية! ومن أمثلة ذلك أيضاً قول الشاعر:

قريناكم ففجّلنا قراكم قبيل الصبح مرداة طحونا⁽³⁵⁾

قريناكم هنا استعارة تحكمية! وفعل "قريناكم" مستعار للإنذار والوعيد على طريقة التهكم؛ لأنَّ حقيقة "القرى" ما يقدم للضيف من الإكرام والتقدير فلمّا علّق بالفعل مرداة طحونا كانت قرينة التهكم. ومن قبيل ذلك قول الحارث بن الحنظلة:

قَبْلَ مَرَا الْيَوْمَ بَيَّضَتْ بِعُيُونِ الدَّاسِ فِيهِ تَغِيْظُ وَإِبَاءُ⁽³⁶⁾

تبييض العين بمعنى الإغماء «والباء في بعيون زائدة، أي بيّضت عيون الناس، وتبييض العين: كناية عن الإغماء.»⁽³⁷⁾ لذلك عبّر بـ "بيّضت بعيون الناس" دون عميت عيونهم.

4-2. تضمين فعل متعدّ بغير حرفه:

إذا دققنا النظر في هذه القصائد نرى أنّ أفعالاً تتعدى في الأصل اللغوي بحرف جر معين، وتتعدى في السياق بغيره، أكثر أنواع التضمن انتشاراً عند شعراء المعلّقات ومن شأن الحرف وقد دخل على فعل أو مشتق لا يتعدى به أن يمنحه معنى جديداً وفي الحين، أبدع التضمنين إبداعاً فيه ومن أمثلة هذا النوع من التضمن قول عنتره بن شداد:

شَرِبْتُ بِمَاءِ الدُّحْرَضَيْنِ فَأَصْبَحْتُ زَوْرَاءَ تَنْفِرُ عَيْنَ حِيَاضِ الدَّيْلَمِ⁽³⁸⁾

تضمّن فعل "شرب" هنا معنى فعل "روى" فتعدى بالباء التي تطلبها فيكون ذلك دليلاً على الفعلين أحدهما بالتصريح به والثاني بالتضمن والإشارة إليه بالحرف الذي يقتضيه مع غاية الاختصار، وهذا أحسن من أن يقال: "شربت من ماء" فإنّبه لا دلالة فيه على الرّي؛ بمعنى آخر، قال الشاعر: "شربت بماء" للدلالة على الشرب بصريحه وعلى الرّي بالباء. ومن أمثلة أخرى على هذا النوع قول طرفة بن العبد:

أَحَلْتُ عَلَيْهِ بِالْقَطِيعِ فَأَجْدَمْتُ وَقَدْ خَرِبَ آلُ الْأَمْعَزِ الْمُتَوَقِّدِ⁽³⁹⁾

أصل هذا الفعل يتعدى بـ "في" كقوله: أحال الدلو في الجدول: صبّها فيه وقد يتعدى بـ "إلى" كما قيل: الإحالة إلى "أي: الإرجاع إلى، لكنّه هنا تعدى بـ"على" ليضمّن معنى "الإقبال عليه" كقول الشاعر:

وَكُنْتَ كَذِئْبِ السَّوِّءِ لَمَّا رَأَى دَمًا بِصَبَاحِهِ يَوْمًا أَحَالَ عَلَى الدَّمِ⁽⁴⁰⁾

ولولا التضمين في تعدية الفعل بغير حرفه لما انصرف لفظ "الإحالة" إلى معنى "الإقبال" وهو يعني: المجيء من جهة قبل الشيء، أي من جهة وجهه وهو مجيء المتجاهر بمجيئه غير المختبئ الخائف وهو يلائم البيت؛ لأنّ الذئب السوء إذا كان جائعاً يسرع في عدوه نحو الصيد. ومن أمثلة ذلك أيضاً قول عنتر بن شداد:

فَوَقَفْتُ فِيهَا نَاقَتِي، وَكَأَنَّهَا فَدَنُّ لِقَضِي حَاجَةَ الْمُتَلَوِّمِ⁽⁴¹⁾

أصل هذا الفعل يتعدى بـ"على" وأصله من قول العرب: وقفت راحلتي على زيد، أي بلغت إليه فحسبتُ ناقتي عن السير. قال ذو الرمة:

وَقَفْتُ عَلَى رِبْعِ لَمِيَّةٍ نَاقَتِي فَمَازَلْتُ أَبْكِي عِنْدَهُ وَأُخَاطِبُهُ⁽⁴²⁾

لذلك فعل "وقف" ينوب في السياق عن فعل آخر يتعدى بـ"في" ويشابهه في المعنى مثل "حبس" والمعنيان: لقد بلغتُ ناقتي إليها وحبست فيها. ومن هذا القبيل قول لبيد:

وَجَبَلَا السُّيُولَ عَنِ الطُّلُولِ كَأَنَّهَا زُبُرٌ تُجَدُّ مُتُونَهَا أَقْلَامُهَا⁽⁴³⁾

جلا: كشف، يجلو جلاء، فأصل هذا الفعل يتعدى لمفعول مباشرة كما قيل: جلوتُ السيفَ جلاء أي: صقلته وجعلت العروس جلاء أيضاً،⁽⁴⁴⁾ لكنه تعدى في هذا البيت بالحرف "عن" ليضمن معنى "كشف" والمعنى في الفعلين يكاد

يكون واحداً، بل يمكن القول: إنّ اللفظين مترادفان، ومن ثم فهذا الترادف يؤدي إلى تأكيد المعنى.

4-3. تضمين فعل معنى الفعل الناسخ:

ومن الأفعال المتضمنة معنى "صار" قول لبيد:

فَعَيْلًا فُرُوعَ الْأَيْهَقَانِ وَأُطْفَلَتْ بِالْجَهْلَتَيْنِ ظِبَاءُهَا وَنَعَامُهَا⁽⁴⁵⁾

والطفل الصغير من أولاد الناس والدواب. وأطفلت المرأة والظبية والنعم إذا كان معها ولد طفل وهو اسم لا فعل له⁽⁴⁶⁾ أمّا هنا أُطْفَلَتْ بمعنى: صارت ذوات الأطفال أي: أصبحت الظباء والنعام ذوات أطفال. إذا دققنا النظر فيه نرى أنّ هذا الفعل تضمن معنى فعل (باض) أيضاً كما قال ابن منظور: «وأمّا قول لبيد: وأطفلت بالجهلتين، فإنّيه أراد وباض نعامها؛ ولكّنه على قوله: شرّاب ألبانٍ وتَمَرٍ وأقَط.»⁽⁴⁷⁾ ويضمّن معنى الفعل الناسخ فيتعدّى إلى مفعولين أصلهما مبتدأ وخبر ويشيع في أفعال الصيرورة كقول عنتر بن شداد:

فَتَرَكْتُهُ جَزَرَ السِّبَاعِ يَتُشَنِّهِ يَقْضِمْنَ حُسْنَ بَنَاتِهِ وَالْمَعْصِمِ⁽⁴⁸⁾

وفعل "ترك" من حيث المعنى من أفعال الجعل، لأنّهما هنا من أخوات النواسخ، فتنصب مفعولين أصلهما مبتدأ وخبر كما قال ابن منظور أيضاً: «والترك: الجعل في بعض اللغات، يقال: تركتُ الحبلَ شديداً أي جعلته شديداً.»⁽⁴⁹⁾ لذلك يكون معنى البيت: «فصيّرتُه طعمة للسباع كما يكون الجزر طعمة للناس.»⁽⁵⁰⁾ يريد أنّه قتله فجعله عرضة للسباع حتى تناولته وأكلته. ومن الأفعال المتضمنة معنى "صار" قول عنتر:

مَا زِلْتُ أَرْمِيهِمْ بِثَغْرَةٍ نَحْرِهِ وَلَبَانِهِ حَتَّى تَسَ رَبْلَ بِالدِّمِ⁽⁵¹⁾

تسريل فعل نحت من الأسم وأصله كان "سربالا" أي: القميص والدرع، وقيل: كل ما لبس فهو سربال⁽⁵²⁾ وقد جاء هذا الإسم بمعنى القميص والدرع في قوله تعالى: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾⁽⁵³⁾ إثمها القمص تقي الحر والبرد وأمّا قوله تعالى: ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بِأَسْبَكُمْ﴾⁽⁵⁴⁾ فهي الدرّوع. لكن في هذا البيت ليس في معناه الأصلي بل بمعنى: تلطّخ: صار الدم له بمنزلة السربال. ومنه أيضاً قول الحارث:

لَمْ يُحْلُوا بَنِي رِزَاجٍ بِرَقَا ءِ نَطَاعٍ لَهُبِمَ عَلَيْهِمُ دُعَاءُ⁽⁵⁵⁾

الشاهد في هذا البيت هو فعل "يحلّوا" ونحن نقول: أحلّته أي: جعلته حالاً كما جاء في حديث العمرة:

حلّمت العمرة لمن اعتمر أي صارت لكم العمرة حالاً جائزة⁽⁵⁶⁾. وإثما الاستخدام بهذه الأفعال التي تصنع من الأسماء هو الإيجاز في الكلام والاقتصاد في اللغة.

4-4. التضمين بطريق اشتقاق الفعل من أسماء الذوات:

ونظراً لأهمية الاشتقاق والحاجة الماسة إليه في توليد الصيغ، لم يقصر شعراء المعلقات اشتقاقهم على المصدر دون غيره من الألفاظ، بل اشتقوا من أسماء الذوات وأسماء الأزمنة والأمكنة كما اشتقوا من أسماء الأصوات ومن الحروف وغيرها والاشتقاق هو «الاشتقاق أخذ كلمة من كلمة أو أكثر مع تناسب بين المأخوذ والمأخوذ منه في اللفظ والمعنى جميعاً»⁽⁵⁷⁾ كما قال طرفة:

مَتَى تَأْتِيَنِي أَصْبَحَكَ كَأَسَاءَ رُوبَةٍ وَإِنْ كُنْتَ عَنْهَا ذَا غِنَى، فَاغْنِ فَارْدَدَ⁽⁵⁸⁾

أصبحك هنا بمعنى: أسقيك صبحاً والصبح أصل معناه «كلُّ ما أكل أو شرب غدوةً وهو خلاف الغبوق ويقال: صَبَحْتُ فُلاناً أي ناولته صَبوحاً من اللبن والخمر واصطبَح القوم: شربوا الصبوح.»⁽⁵⁹⁾ ومثل هذا الفعل جاء في قول عمرو بن كلثوم أيضاً:

أَلَا هِيَ بِصَبَحِكَ فَاصْبَحِينَا وَلَا تُبْقِي خُمُورَ الْأَنْدَرِينَا⁽⁶⁰⁾

اصْبَحِينَا: اسقينا الصبوح والاشتقاق عملية خلق وإبداع في اللغة، إنه عامل من عوامل نمو اللغات وتطورها، ووسيلة رائعة من وسائل إثرائها بالمفردات. لم يقصر شعراء المعلقات اشتقاقهم على المصدر دون غيره من الألفاظ، بل اشتقوا من أسماء الأمكنة والأزمنة أيضاً كقول لبيد:

أَسْهَلْتُ، وَانْتَصَبْتُ كَجَذَعٍ مُنِيفَةٍ جَرْدَاءَ يَحْصَرُ دَوْغَهَا جُرَاهُهَا⁽⁶¹⁾

والسهل من الأرض: نقيض الحزن، وهو من الأسماء التي أجري مجرى الظروف؛ والجمع سهول. وأسهل القوم: إذا نزلوا السهل بعدما كانوا نازلين بالحزن⁽⁶²⁾. إذن أسهلتُ في هذا البيت أي: نزلتُ إلى السهل وكما قال الزوزني: «نزلت من المرقب وأتيت مكاناً سهلاً.»⁽⁶³⁾ وأيضاً قوله إذا اشتق من إسم الزمان:

بَاكَرْتُ حَاجَتَهَا الدَّجَاجَ، بِسُحْرَةٍ لِأَعْيَلٍ مِنْهَا، حِينَ هَبَّ نِيَامُهَا⁽⁶⁴⁾

البكرة: الغدوة وقال سيبويه: لا يستعمل إلا ظرفاً وفعل بَاكَرْتُ هنا يعني: أتيت بكرة أي: سبقت الدجاج باكراً أي تَعَطَّيْتُ شربها قبل أن يصدق الديك. إذا دققنا النظر في هذه الأفعال المشتقة من الأسماء نرى أنَّ غرضها الرئيس هو توليد

ألفاظ جديدة لخلق الإيجاز في النص والتعبير عن أفكاره بطريقة أخصر. ومن قبيل ذلك أيضاً قول الحارث بن حلزة:

أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عِشَاءً فَلَمَّا أَصْبَحُوا أَصْبَحَتْ لَهُمْ ضَوْضَاءٌ⁽⁶⁵⁾

5. التناوب في الأسماء:

تعد ظاهرة التناوب بين الأسماء من الظواهر الأسلوبية اللافتة للنظر في شعر المعلقات، ونعني بهذه الظاهرة ورود اسم في السياق الشعري بديل عن نظيره. ولا يعني ذلك أن أي اسم من الأسماء يصلح لأن ينوب عن غيره، إذ لا بد أن تكون هناك مشابهة أو علاقة بين الاسم النائب الوارد والآخر المنوب عنه⁽⁶⁶⁾. وتتضح تلك الظاهرة لى النحو التالي:

• "العمى" بمعنى "الجهل"

يقول زهير بن أبي سلمى:

وَأَعْلَمُ عِلْمَ الْيَوْمِ وَالْأَمْسِ قَبْلَهُ وَلَكِنِّي عَيْنَ عِلْمٍ مَا فِي غَدٍ عَيْمٍ⁽⁶⁷⁾

العمى ذهاب البصر كله ورجل عم في أمره: لا يبصره، ورجل أعمى في البصر⁽⁶⁸⁾. وقيل أيضاً: «العمى يقال في افتقاد البصر والبصيرة ويقال في الأول أعمى وفي الثاني أعمى وعم». ⁽⁶⁹⁾ أما في هذا البيت فنرى أنّ هذه الكلمة نابت مناب "الجهل" والقصد منها هو العمى القلب كما أشار الزوزني إلى ذلك: «وقد يحيط علمي بما مضى وما حضر ولكني عمي القلب عن الإحاطة بما هو منتظر متوقع». ⁽⁷⁰⁾ كذلك أطلق الشاعر (غد) على الزمن المستقبل مجازاً لتقريب الزمن المستقبل من البعيد لملازمة اقتراب الزمن لمفهوم الغد؛ لأنّ الغد هو اليوم الموالي لليوم

الذي فيه المتكلم فهو أقرب أزمنة المستقبل. وتنكير غد للتعظيم والتهويل، أي لغد لا يعرف كنهه.

• "الشهيد" بمعنى "العليم"

يقول الحارث بن الحنظلة:

وَهُوَ الرَّبُّ وَالشَّهيدُ عَلَى يَوْمِ الْحَيَارَيْنِ وَالْبَلَاءِ بَلَاءٌ⁽⁷¹⁾

والشَّهيد: الشاهد، وحقيقته: المخبر عن أمر فيه تصديق للمخبر، واستعمل هنا في العالم علم تحقيق. قال ابن منظور: «والشَّهيد: فاعيل من أبنية المبالغة في الفاعل فإذا اعتبر العلم مطلقاً فهو عليم. والشاهد العالم الذي يبيّن ما علمه.»⁽⁷²⁾ وتعديته بحرف "على" يدل على أنّه هنا بمعنى عليم.

• "الزجاجة" بمعنى "الخمير"

يقول عنتره بن شداد:

بِزُجَاجَةٍ صَفَاءٍ ذَاتِ أَسَى-رَقَّةٍ قُرْنَيْتٍ بِأَزْهَرٍ فِي الشِّمَالِ مُقَدَّمٌ⁽⁷³⁾

والزَّجَاجَةُ اسم إناء يصنع من الزجاج، سمّيت زجاجة؛ لأنّها قطعة مصنوعة من الزجاج، كانوا يتخذون من الزجاج آنية للخمير لأنّ الزجاج شفاف لا يحجب لون الخمير وصفاءها. [74] ولكن هنا يريد بالزجاجة الخمير فذكر الزجاجة وكفي بها عن الخمير لأنّها مجاورة عنها.

• "الكأس" بمعنى "الخمير"

يقول عمر بن كلثوم:

وَكَأْسٍ قَدْ شَرِبْتُ بِبَعْلِكَ وَأُخْرَى فِي دِمَشْقَ وَقَاصٍ-رَيْنَا⁽⁷⁵⁾

والكأس: بالهمز الإناء المجعول للخمير فلا يسمى كأساً إلا إذا كان فيه الخمير، وقد تسمّى الخمير كأساً على وجه المجاز المرسل بهذا الاعتبار⁽⁷⁶⁾. فالكأس كأس الخمير، ولا تسمّى آنية الخمير كأساً إلا إذا كان فيها خمير، ولذلك حسن تعدية فعل "شرب" إلى الكأس؛ لأنّ مفهوم الكأس يتقوّم بما في الإناء من الخمير لذلك يصبح معنى البيت هكذا: "ربّ خميرٍ قد شربت" ومثل هذا قول أعشى:

وَكَأْسٍ شَرِبْتُ عَلَى لَذَّةٍ وَأُخْرَى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا

يريد الشاعر: خمير شربت.

• "الزائرين" بمعنى "الأعداء"

يقول عنتره بن شداد:

حَلَّتْ بِأَرْضِ الزَّائِرِينَ فَأَصْبَحَتْ عَسِيراً عَلَيَّ طِلَابُكَ ابْنَةَ مَخْرَمٍ⁽⁷⁷⁾

الزائرين هنا بمعنى الأعداء. أصل الزئير: صوت الأسد في صدره وفي الحديث: فسمع زئير الأسد⁽⁷⁸⁾. والزائرين حمل على العاقل جمع للتذكير أو للعقول. على أساس القوانين النحوية، ينبغي أن يأتي البيت بهذه الصورة: (بأرض الزائرة) لامتناع الجمع بالواو والنون في غير ذوي العلم؛ لكن الشاعر هنا أتى بالجملة (حلت بأرض الزائرين) تشبيههم بالعقلاء، أو باعتبار أنهم عقلاء.

6. التناوب بين الحروف:

في هذا المستوى نريد مناقشة فكرة نيابة حرف عن آخر في قصائد المعلقات، بمعنى آخر وضع حرف مكان آخر؛ قصداً لمعنى معين أو دلالة خاصة «فحروف العطف - وإن كانت جميعاً تشترك في المعنى أو الوظيفة العامة، وهي الضم والجم - فالأصل أن لكل حرف منها معنى خاصاً، يستعمل فيه بأصل

الوضع، وينفرد به عن غيره، بيد أنه قد يعدل عن هذا الأصل في رأي كثير من الدارسين في القديم والحديث فينوب حرف عطف عن آخر في معناه لعلّة معينة.⁽⁷⁹⁾ كثرة استعمال الحروف وتنوعه في قصائد المعلقات يعطي للنص الشعري أسلوباً متميّزاً، إذ يدلّ على الثراء اللغوي «والتناوب بين الحروف يشير إلى مدى القدرة على تطويع الحرف بحيث يأتي بديلاً عن حرف آخر دون إخلال بمعنى المراد، وقد تحدث إضافة دلالات جديدة إلى هذا المعنى.»⁽⁸⁰⁾ يأتي هذا النمط من التناوب في المعلقات بأشكال مختلفة منها:

• ورود "على" بمعنى "مع"

يقول الحارث بن حلزة:

فَبَقِينَا عَلَى الشَّيْءَاءِ تَنَمِيمٍ نَا حُصُونٌ وَعِزَّةٌ قَعَسَاءُ⁽⁸¹⁾

فوضعت "على" موضع "مع" والمعنى على وجود "على": أي أتهم على الرغم من الظلم مسيطرون على أعداءهم بحيث دفعهم وشجعهم بالدفاع عن قبيلتهم وعلى اعتبارها بمعنى "مع" فالمعنى أنّ قبيلة الشاعر بقيت مع بغض الناس إياهم.

• ورود "الفاء" بمعنى "واو" العطف

يقول امرؤ القيس:

قَفَا نَبَكٍ مِّنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ بِسَـَٔ قَطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ⁽⁸²⁾

يريد "بين الدخول وحومل". والمعنى على وجود الفاء فيه إسراع إلى البكاء على منازل الحبيبة ولهفة إلى ذلك، وعلى تقدير "الواو" يعني الرغبة في البكاء دون التمييز بينهما. يقول ابن فارس أيضاً: «إن الفاء مثل الواو في بين الدخول فحومل

ولولا أن الفاء بمعنى الواو لفسد المعنى لأنه لا يريد أن يصير بين الدخول أولاً ثم بين حومل وهذا كثير في الشعر»⁽⁸³⁾.

• ورود "في" بمعنى "على" الجارة

يقول عنترة بن شداد:

بَطْلٌ كَأَنَّ ثِيَابَهُ فِي سِرْحَةٍ يُجِدِّي نِعْمَالِ السَّيِّبِ لَيْسَ بِتَوَامٍ⁽⁸⁴⁾

قد قال التبريزي: في هنا بمعنى على: أي على سرحة، وجاز ذلك من حيث كان معلوماً أن ثيابة لا تكون في داخل سرحة، لأن السرحة لا تنشق، فتستودع الثياب، وغيرها... فهذا من طريق المعنى بمنزلة كون الفعلين أحدهما في معنى صاحبه⁽⁸⁵⁾.

• ورود "في" بمعنى "من"

يقول إمرؤ القيس:

أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا انْجَلِ بِصُبْحٍ وَمَا الْإِصْبَاحُ فَيْكَ بِأَمْثَلٍ⁽⁸⁶⁾

وجاءت روايته في شرح الزوزني (منك بأمثل)، وقال الزوزني فط شرحه: «وهذا إذا رويت وما الإصباح منك بأمثل، وإن رويت: (فيك) كان المعنى وما الإصباح في جنبك»⁽⁸⁷⁾ فرمما كان مسوغ هذا التناوب هو غرق الشاعر في الهم، فإذا ما ذهب ظلام الليل بمجيء الصباح فإنّ ظلام الهم لن ينجلي، بل سيبقي الشاعر يعانیه كما أنّ النهار يبدأ وغبش الليل ما زال قائماً⁽⁸⁸⁾.

• ورود "الكاف" بمعنى "الباء"

يقول إمرؤ القيس:

مُهَفِّهَةٌ يَبْضَاءُ غَيْرُ مُفَاضَةٍ تَرَائِبُهَا مَصْقُولَةٌ كَالسَّجَنِجِلِ⁽⁸⁹⁾

فإذا نظرنا إلى معنى السجّجل في هذه الرواية فإنّ معنى الكاف هو التشبيه، والسجّجل فيشرح السكري: المرأة، أو قطع الفضّة أو سبائكها، إلا أنّ الذي دفعنا إلى القول بأنّ الكاف بمعنى الباء في هذا الموضع ما رواه أبو عبيدة: بأنّ السجّجل هو الزعفران فيكون المعنى: ترائبها مصقولة بالسجّجل أي: الزعفران⁽⁹⁰⁾.

• ورود "هل" بمعنى "قد"

يقول الحارث بن حلّزة:

هَلْ عَلِمْتُمْ أَيَّامَ يُنْتَهَبُ النَّارِ
سُ غَوَّارًا لِكُلِّ حَرِيٍّ غَوَّاءٍ⁽⁹¹⁾

وحرف هل مفيد الاستفهام ومفيد التحقيق ويظهر أنّه موضوع للاستفهام عن أمر يراد تحقيقه، فلذلك قال أئمة المعاني إنّ هل لطلب تحصيل نسبة حكمية تحصل في علم المستفهم وقال الرمخسري في الكشف: إنّ أصل "هل" أنّها مرادفة "قد" في الاستفهام خاصة يعني "قد" التي للتحقيق وإنّما اكتسبت إفادة الاستفهام من تقدير همزة الاستفهام معها كما دل عليه ظهور الهمزة معها في قول الشاعر من البسيط:

سَائِلُ فَوَّارِسَ بَرْبُوعٍ بِشَيْءٍ مَدَّتِنَا
أَهْلَ رَأُونَا بِسَفْعِ الْقَاعِ ذِي الْأَكْمِ

والمعنى: أقيّد رأونا.⁽⁹²⁾ والاستفهام في بيت الحارث مستعمل في التعريض عن الخبر مجازاً وليس مستعملاً في حقيقته ونوثر حرف "هل" في هذا المقام لما فيه من معنى التحقيق؛ لأنّ "هل" في الاستفهام مثل "قد" في الإخبار وفي هذا الصدد قال الزوزني: «وهل في البيت بمعنى قد؛ لأنّه يحتجّ عليهم بما علموه.»⁽⁹³⁾ ومثل قول عنتره:

هَلْ غَادَرَ الشُّعْرَاءُ مَن مَّتَرَدِّمٍ
أَمْ هَلْ عَرَفَتِ الدَّارَ بَعْدَ تَبَوُّهِمِ⁽⁹⁴⁾

والاستفهام "هَلْ" في الشطر الثاني بمعنى "قَدْ" حرف "أَمْ" هنا منقطعة بمعنى بل، كما قال الزوزني: «ويجوز أن يكون هل ههنا بمعنى قد كقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً﴾»⁽⁹⁵⁾ أي: قد أتى. «⁽⁹⁶⁾ لذلك كان الأصل في الشطر الثاني: أقد عرفت.

• ورود "أَنْ" بمعنى "لئلا"

من قال بهذا المعنى من النحاة استدل بقولهم: بطن الفرس أن تنقلت يريدون به: لئلا تنقلت. وعلى هذا المعنى وجهوا معنى عدد من الآيات الكريمات منها قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ أَنْ تَضَلُّوا﴾⁽⁹⁷⁾ ومن الشعر قول عمر بن كلثوم: نَزَلْتُمْ مَنْزَلَ الْأَضْيَافِ مِنِّي فَأَعْجَلَنِي الْقِرَى أَنْ تَشْتُمُونَا⁽⁹⁸⁾

ونسب هذا القول بهذا المعنى للكوفيين في حين يعدها البصريون مصدرية على حذف المضاف تقديره في البيت مخافة أن تشتمونا. وهذا يوافق منهجية البحث الذي يعتمد على التوسع في معاني الحروف إذا دل عليها دليل بما يلائم السياق وجمالية النص⁽⁹⁹⁾.

الخاتمة:

حاول البحث، دراسة ظاهرة التناوب وقد جاءت دراسة هذا النمط من العدول وفقاً لما وجدناه من شواهد تمثله قصائد المعلقة تبين هذه الظاهرة وجاءت بعض نتائجه كالتالي:

- تثبت دراسة التناوب في المعلقة أن ظاهرة التناوب في الأفعال أكثر انتشاراً فيها بالنسبة لأنماط آخر من التناوب والتي جاءت هي نفسها بأربعة أشكال منها:
- الف- تضمين فعل معنى فعل آخر. ب- تضمين فعل متعدّ بنفسه معنى فعل متعد

بحرف الجر. ج- تضمين فعل معنى الفعل الذي يتعدّى إلى مفعولين. د- تضمين الأفعال بطريق الاشتقاق.

- إن الشاعر الجاهلي يضمن الفعل بطريق الاشتقاق ليغيّر بنية الكلمة وينتج بنية صرفية جديدة ذات معنى دلالي جديد وهو الوسيلة الأولى في تنمية الثروة اللغوية وهذا التنوع الأسلوبي يحقق معنيين في آن واحد ولا يلغي معنى الفعل المنوب عنه.

- أثبت البحث أنّ لدلالة السيّاق اللغوي ولدلالة السياق الموقفّي تأثيرين واضحين على معرفة ظاهرة التناوب والغرض الجمالي منها. إنّ السياق اللغوي كثيراً ما كان بطريق المصاحبات اللفظية منها فاعلية قانون الجوار في إحداث أنواع من التأثيرات في بنية المعدول إليه وأيضاً قوانين لغوية حاسمة ومرجّحة في النحو العربي. أمّا السياق المقامي فيقودنا إلى سبب اختيار الكلمة المتناوبة من قبل الشاعر.

- إنّ ظاهرة التناوب بين الحروف -عطفاً كان أم جاراً- هي حقيقة لغوية ثابتة وقد بان من خلال البحث أنّ الحروف الجارّة عند شعراء المعلقات قد استعملت بمعنى الحروف الأخرى بحيث قد أعطت هذه النيابة معنى زائداً على الكلمة المنوب عنها وهو ضرب من البلاغة والتوسع في المعنى.

- كان التوسع في المعاني، والإيجاز في اللفظ والاختصار في الأساليب نقطاً مشتركة من جمالية التناوب في الأبيات الشعرية وهذا يعني أنّ الشعراء استعملوا اللفظ ليدل على أكثر مما وضع له فبدل أن يطيلوا في الكلام ليجمعوا معنيين أو أكثر يأتون بعبارة واحدة تجمعها كلها فيوجزون في التعبير ويوسعون في المعنى. إذا كان التضمين في الأفعال بصورة الاشتقاق من الأسماء فغرضه الرئيس هو توليد ألفاظ جديدة لخلق الإيجاز في النص والتعبير عن الأفكار بطريق أخصر.

الهوامش:

* إن مصطلح "درجة الصفر للكتابة" الذي أطلق عليه رولان بارت هو مفهوم حديث يلتقي مع حديث القدماء عن "الأصل" و"أصل الوضع" وإن درجة الصفر صفة تطلق على الخطاب الذي تدل فيه كل كلمة على ما وضعت له في أصل اللغة. [4]

** يقال: ضمن الشيء وبه ضمنا وضمنا: كفل به، وضمنه إياه: كفله. ومن معانيه كذلك: الإيداع. يقال: ضمن الشيء: أودعه إياه كما تودع الوعاء المتاع. [24] وقد جاء في اللغة على أربعة مقاصد: التضمنين العروضي، والأدبي (البلاغي) والبياني والنحوي والذي يهمننا في هذا الموضوع التضمنين النحوي.

ذكر المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

- ابن فارس، أبو الحسين أحمد، (1963م)، **الصاحبي في فقه اللغة**
وسنن العرب في كلامها، تحقيق: مصطفى الشومعي، بيروت: مؤسسة بدران.
 ابن منظور، مُجَّد بن مكرم، (لاتا)؛ **لسان العرب**، دار صادر، بيروت.
 ابن هشام، عبدالله، (لاتا)؛ **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، علّق عليه: أبو عبدالله الجنوبي، ج2، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
 أبو حيّان الأندلسي، (1993م)؛ **تفسير البحر المحيط**، الجزء الرابع، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
 إمرو القيس. (2004م). **ديوان إمرو القيس**، ضبطه: مصطفى عبد الشافي، ط5. بيروت: دار الكتب العلمية.

أمين، عبد الله (1956م)، *الاشتقاق*، الطبعة الأولى، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر.

بليت، هنريش. (1999م)؛ *البلاغة والأسلوبية نحو نموذج سيميائي لتحليل النص*، ترجمة: مُجدّ العمري، بيروت، لبنان: أفريقيا الشرق.

الجرجاني، عبد القاهر. (1978م). *دلائل الإعجاز*. (تحقيق: مُجدّ رشيد رضا). بيروت: دارالمعرفة.

الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حمّاد (2009م)، *الصحاح*، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: مُجدّ تامر، القاهرة: دار الحديث.

الحارث بن حلّزة. (1991م). *ديوان الحارث بن حلّزة*، جمعه: إميل بديع يعقوب، ط1، بيروت: دار الكتاب العربي.

حسام الدين، كريم زكي. (2001م). *أصول تراثية في اللسانيات الحديثة*. (ط3). القاهرة: الرشاد للطباعة.

حسن، عباس (لاتا)، *النحو الوافي*، ط7، دار المعارف، القاهرة.

الذنيبات، أحمد عبد الرحمن (2011م)، *تناوب حروف الجر في ديوان إمرئ القيس*، أردن: مجلّة كلية الآداب واللغات، العدد التاسع، صص 1-26.

ذو الرّمة، (1995م). *ديوان ذي الرّمة*، شرحه: أحمد حسن بسج، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية.

الراغب الأصفهاني (لاتا)، *المفردات في غريب القرآن*، الجزء الأول، مكتبة نزار مصطفى الباز.

ربابعة، موسى سامح. (2003م)؛ الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها، ط1، الأردن: دار الكندي.

زهير بن أبي سلمى. (1988م). ديوان زهير بن أبي سلمى، شرحه: علي حسن فاعور، ط1. بيروت: دار الكتب العلمية.

الزمخشري، جار الله أبي القاسم محمود بن عمر. (1998م). الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. (تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض). (ج 6). الرياض: مكتبة العبيكان

الزوزني، أبو عبد الله حسين بن أحمد. (1983م)، شرح المعلقات العشر، بيروت: دار مكتبة الحياة.

سامح ربابعة، موسى. (2003م). الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها. كويت: جامعة الكويت.

سليمان، فتح الله أحمد. (2008م). الأسلوبية: مدخل نظري ودراسة تطبيقية. القاهرة: دار الآفاق العربية.

طرفة بن عبد. (2002م). ديوان طرفة بن عبد، شرحه: مهدي محمد ناصر الدين، ط2. بيروت: دار الكتاب العربي.

عبد الكريم، حجاج أنور. (2014م). التناوب في المعنى بين حروف العطف "دراسة في القرآن الكريم"، مجلة جامعة أمّ القرى لعلوم اللغات وآدابها، العدد الثاني عشر. العدد 11، صص 339-367

العطية، أحمد مطر (2008م)، *حروف الجر بين النيابة والتضمين*، دمشق: «التراث العربي مجلّة فصلية محكمة»، العدد 112، الرقم الثامنة والعشرون، صص 230-261.

عمر بن كلثوم. (1991م). *ديوان عمر بن كلثوم*، جمعه: إميل بديع يعقوب، ط1، بيروت: دار الكتاب العربي.

عنتر بن شداد. (1992م). *ديوان عنتر*. جمعه: مجيد طراد، ط1. بيروت: دار الكتاب العربي.

عياد، شكري محمد. (1988م)؛ *اللغة والإبداع مبادئ علم الأسلوب العربي*، ط1، القاهرة: طبعة انترنشنال.

ليبد بن ربيعة. (2004م). *ديوان ليبد*، اعتنى به: حمدو طناس، ط1. بيروت: دار المعرفة.

المآلقي، أحمد بن عبد النور، (1985م)، *رصف المباني في شرح حروف المعاني*، تحقيق: أحمد الخراط، ط2، دمشق: دار القلم.

محمود خليل، إبراهيم. (2011م). *النقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكير*. عمان: دار المسيرة.

المشهداني، شيماء شاكر (2013م)، *التضمين بين حروف المعاني*، «مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية»، المجلد 20،

مصلوح، سعد. (1992م)؛ *الأسلوب دراسة لغوية إحصائية*، ط3، القاهرة: عالم الكتب.

المنصوري، أحمد المهدي. (2013م). النظرية التوليدية التحويلية وتطبيقها في النحو العربي. مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات. العدد 29.

ميشال، زكريا. (1986م). الألسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية (النظرية الألسنية). المؤسسة الجامعية للدراسة والنشر. النابغة الذبياني. (1996م). ديوان النابغة الذبياني، شرح وتقديم: عباس عبد الساتر، ط2. بيروت: دار الكتب العلمية.

الهوامش:

- [1] ابن منظور، لسان العرب، مادة ن وب
- [2] أحمد فتح الله سليمان، الأسلوبية: مدخل نظري ودراسة تطبيقية: ص 91
- [3] موسى سامح ربابعة، الأسلوبية مفاهيمها وتحليلاتها: ص 35
- [4] المصدر نفسه: 55
- [5] أحمد المهدي المنصوري، النظرية التوليدية التحويلية وتطبيقها في النحو العربي: ص 236
- [6] زكريا ميشال، الألسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية: ص 26 - 27
- [7] إبراهيم محمود خليل، النقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكيك: ص 161
- [8] كريم زكي حسام الدين، أصول تراثية في اللسانيات الحديثة: ص 48
- [9] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز: ص 96
- [10] شكري محمد عياد، اللغة والإبداع مبادئ علم الأسلوب العربي: ص 31
- [11] هنريش بليت، البلاغة والأسلوبية نحو نموذج سيميائي لتحليل النص: ص 58

- [12] موسى سامح رابعة، الأسلوبية مفاهيمها وتحليلاتها: ص 45
- [13] سعد مصلوح، الأسلوب دراسة لغوية إحصائية: ص 37
- [14] أحمد فتح الله سليمان، الأسلوبية: مدخل نظري ودراسة تطبيقية: ص 93
- [15] ابن منظور، لسان العرب، مادة أ م ل
- [16] الأنعام: 39
- [17] البقرة: 18
- [18] أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط: ص 127
- [19] إمرؤ القيس، ديوان إمرؤ القيس: ص 115
- [20] أحمد بن عبد النور المألقي، رصف المباني في شرح حروف المعاني: ص 432
- [21] أحمد عبد الرحمن الذنيبات، تناوب حروف الجر في ديوان إمرؤ القيس: ص 16
- [22] فاضل صالح السامرائي، معاني النحو: صص: 9-10
- [23] المصدر نفسه: 10
- [24] ابن منظور، لسان العرب: مادة ض م ن
- [25] عباس حسن، النحو الوافي: ص 170
- [26] عبد الله ابن هشام، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: ص 305
- [27] زهير ابن أبي سلمى، ديوان زهير بن أبي سلمى: ص 107
- [28] الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن: مادة ذوق
- [29] عمر بن كلثوم، ديوان عمر بن كلثوم: ص 65
- [30] طرفة بن عبد، ديوان طرفة بن عبد: ص 28
- [31] المصدر نفسه: ص 29

- [32] الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن: مادة أ ت ي
- [33] المصدر نفسه: مادة ج اء
- [34] النابغة الذبياني، ديوان النابغة الذبياني: ص 27
- [35] عمر بن كلثوم، ديوان عمر بن كلثوم: ص 73
- [36] الحارث بن حلزة، ديوان الحارث بن حلزة: ص 25
- [37] أبو عبد الله حسين بن أحمد الزوزني، شرح المعلقات العشر: ص 269
- [38] عنتر بن شداد، ديوان عنتر: ص 163
- [39] طرفة بن عبد، ديوان طرفة بن عبد: ص 24
- [40] أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية: مادة ح ول
- [41] عنتر بن شداد، ديوان عنتر: ص 149
- [42] ذو الرمة، ديوان ذي الرمة: ص 23
- [43] لبيد بن ربيعة، ديوان لبيد: ص 108
- [44] أبو عبد الله حسين بن أحمد الزوزني، شرح المعلقات العشر: ص 162
- [45] لبيد بن ربيعة، ديوان لبيد: ص 107
- [46] ابن منظور، لسان العرب: مادة ط ف ل
- [47] المصدر نفسه
- [48] عنتر بن شداد، ديوان عنتر: ص 174
- [49] ابن منظور، لسان العرب: مادة ت ر ك
- [50] أبو عبد الله حسين بن أحمد الزوزني، شرح المعلقات العشر: ص 250
- [51] عنتر بن شداد، ديوان عنتر: ص 183

- [52] ابن منظور، لسان العرب: مادة س ر ب ل
- [53] النحل: 81
- [54] النحل: 81
- [55] الحارث بن حلزة، ديوان الحارث بن حلزة: ص 39
- [56] ابن منظور، لسان العرب: مادة ح ل ل
- [57] عبد الله أمين، الاشتقاق: ص 1
- [58] طرفة بن عبد، ديوان طرفة بن عبد: ص 24
- [59] ابن منظور، لسان العرب: مادة ص ب ح
- [60] عمر بن كلثوم، ديوان عمر بن كلثوم: ص 64
- [61] لبید بن ربیعۃ، دیوان لبید: ص 114
- [62] ابن منظور، لسان العرب: مادة س ه ل
- [63] أبو عبد الله حسين بن أحمد الزوزني، شرح المعلقات العشر: ص 186
- [64] لبید بن ربیعۃ، دیوان لبید: ص 114
- [65] الحارث بن حلزة، ديوان الحارث بن حلزة: ص 24
- [66] أحمد فتح الله سليمان، الأسلوبية: مدخل نظري ودراسة تطبيقية: ص 113
- [67] زهير ابن أبي سلمى، ديوان زهير بن أبي سلمى: ص 110
- [68] ابن منظور، لسان العرب: مادة ع م ي
- [69] المصدر نفسه
- [70] أبو عبد الله حسين بن أحمد الزوزني، شرح المعلقات العشر: ص 150
- [71] الحارث بن حلزة، ديوان الحارث بن حلزة: ص 29

- [72] ابن منظور، لسان العرب: مادة ش ه د
- [73] عنتر بن شداد، ديوان عنتر: ص 169
- [74] ابن منظور، لسان العرب: مادة ز ج ج
- [75] عمر بن كلثوم، ديوان عمر بن كلثوم: ص 66
- [76] ابن منظور، لسان العرب: مادة ك أ س
- [77] عنتر بن شداد، ديوان عنتر: ص 151
- [78] ابن منظور، لسان العرب: مادة ز أ ر
- [79] أنور حجاج عبد الكريم، التناوب في المعنى بين حروف العطف "دراسة في القرآن الكريم": ص 201
- [80] أحمد فتح الله سليمان، الأسلوبية: مدخل نظري ودراسة تطبيقية: ص 121
- [81] الحارث بن حلزة، ديوان الحارث بن حلزة: ص 25
- [82] إمرؤ القيس، ديوان إمرؤ القيس: ص 110
- [83] ابن فارس، أبو الحسين أحمد، (1963م)، الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها: ص 110
- [84] عنتر بن شداد، ديوان عنتر: ص 177
- [85] أحمد مطر العطية، حروف الجر بين النيابة والتضمين: ص 248
- [86] إمرؤ القيس، ديوان إمرؤ القيس: ص 117
- [87] أبو عبد الله حسين بن أحمد الزوزني، شرح المعلقات العشر: ص 60
- [88] أحمد عبد الرحمن الذنيبات، تناوب حروف الجر في ديوان إمرؤ القيس: ص 10
- [89] إمرؤ القيس، ديوان إمرؤ القيس: ص 115

- [90] أحمد عبد الرحمن الذنيبات، تناوب حروف الجر في ديوان إمرئ القيس: ص 19
- [91] الحارث بن حلزة، ديوان الحارث بن حلزة: ص 27
- [92] جابر الله الزمخشري، الكشف: ص 274
- [93] أبو عبد الله حسين بن أحمد الزوزني، شرح المعلقات العشر: ص 272
- [94] عنبرة بن شداد، ديوان عنبرة: ص 174
- [95] الإنسان: 1
- [96] أبو عبد الله حسين بن أحمد الزوزني، شرح المعلقات العشر: ص 234
- [97] النحل: 15
- [98] عمر بن كلثوم، ديوان عمر بن كلثوم: ص 73
- [99] شيماء شاكر المشهداني، التضمن بين حروف المعاني: ص 34